روبنسون كروزو لدانيال ديفو

بقلم
الدكتورة أنجيل بطرس سمعان

لعل أول ما يخطر لنا عند ذكر «روبنسون كروزو» هو تلك الساعات الجميلة التى قضاها معظمنا أيام الطفولة فى قراءة هذا الكتاب الممتع ، متعلقين بالبطل ، متتبعين لمغامراته ، مشدودين إليه وهو يجوب أطراف جزيرته النائية باحثاً عن الطعام ، مستكشفاً معالم عالمه الجديد ، أو وهو يقدح زناد فكره ليجد طريقة يصنع بها آنية يحتفظ بها بغذائه ، أو وهو يقاتل عدداً من آكلى لحوم البشر لينقذ الضحية المسكينة التى كادت أن تصبح طعاماً لبعض أفراد جنسها ، مبتئسين لوحدته حيناً ، فرحين بانتصاره حيناً آخر ، وأخيراً مهللين لنجاته وعودته سالماً لبلاده .

ولعل هذا الخاطر الجميل قد ينسينا ولو لبرهة قصيرة أن « روبنسون كروزو» وإن قرئت أول ما تقرأ عادة فى سنوات الطفولة إلا أنها ، مثلها فى ذلك مثل كثير من روائع الأدب العالمى «كرحلات جاليفر » ، و« دون كويكشوت » مثلا ، لم تكتب أصلا للأطفال . فسرعان ما نذكر عودتنا إلى هذه القصة فيما بعد الطفولة واستمتاعنا بها كعمل أدبى فريد ، وتناولنا لها بالقراءة الجادة والدراسة والتحليل . « فروبنسون كروزو» ليست إحدى الروايات الخالدة التى راجت وأصبحت جزءاً من التراث الإنسانى فحسب ولكنها ذات أهمية خاصة فى تاريخ الأدب أيضاً ، فهى تعد بحق أول عمل قصصى روائى . كتبها دانيال ديفو فى أواخر الحقبة الثانية من القرن الثامن عشر فكانت فاتحة لذلك النشاط الروائى الذى ازدهر فى انجلترا فى النصف الأول من ذلك القرن على يد صمويل ريتشاردسون وهنرى فيلدنج ولورنس ستيرن وتوبياس سموليت ، واكتمل نموه فى القرن التاسع عشر وانتقل من انجلترا إلى فرنسا وروسيا اللتين بزتا إنجلترا فى هذا المضمار .

ولم يكن دانيال ديفو يدرك تماماً أهمية العمل الذى قام به وما أظنه كان يرحب بمولد هذا الفن الجديد — فن الرواية — على يديه . فقد قدم عمله للقارئ مدعياً أنه سجل لأحداث حقيقية وقعت فعلا ولا دخل للخيال فيها . لذا فقد عمل بكل وسيلة لإيهام القارئ بصحة ادعائه ، فأضفى على أحداث قصته الخيالية جواً من الصدق والواقعية ، فوضع بذلك حجر الأساس فى حرفية هذا الفن الجديد .

ونحن عندما نتحدث عن فن الرواية إنما نعنى الرواية كما نعرفها اليوم ونفرق بينها وبين القصص الرومانسية أو قصص البطولة والحب التى كانت تصور

عالماً خيالياً قائماً على الأعمال البطولية الخارقة التى يقوم بها الأبطال والأمراء ، بل والآلهة أحياناً ، ولا تمت إلى عالم الواقع بصلة . كما نفرق بينها وبين القصص « البيكارية » أو قصص « الشطار » التى تقوم أساساً على وصف مغامرات أحد هؤلاء « الشطار » أو الأبطال المتجولين ولا تهتم كثيراً بتصوير الحياة المعاصرة تصويراً واقعياً . ومن الواضح أن ديفو عندما قرر فى مقدمة كتابه أنه يقدم مغامرات حقيقية وأنه يهدف من وراء ذلك إلى جانب إدخال السرور إلى قلب القارئ ، تلقينه درساً أخلاقياً ، إنما كان يرمى بذلك التفريق بين عمله وبين تلك الأعمال . وهكذا نجد ديفو ينحو نحواً جديداً فى كتابة الأعمال القصصية ، ويتجه نحو الواقع ليقدم شخصيات من واقع الحياة وإن وجدوا أنفسهم فى ظروف غريبة مثيرة . وكأنه يباعد بين عمله وبين تلك القصص الرومانسية التى كان يرى فيها الكثيرون من أبناء عصره عبثاً ومضيعة للوقت . ومما لا شك فيه أن هذا الاتجاه كان نتيجة لمزاجه الخاص ولروح العصر الذى عاش فيه ، فمن الواضح أن دانيال ديفو وبطل قصته إنما يمثلان أبناء تلك الطبقة المتوسطة التى كان لنموها فى ذلك الوقت فضل كبير فى جعل فن الرواية ممكناً .

وجدير بنا قبل أن ننتقل إلى تحليل « روبنسون كروزو » ودراسة الصفات التى جعلت منها عملا حياً خالداً أن نتعرف أولا على شخصية كاتبها وأن نشير باختصار إلى بعض العوامل التى هيأت الجو المناسب لمولد فن الرواية وازدهاره .

دانيال ديفو

كتب دانيال ديفو « روبنسون كروزو » وقد شارف الستين من عمره وبعد أن كان قد اكتسب خبرات وتجارب عديدة متنوعة . فقد كانت حياته حياة حافلة متعددة الجوانب . ولد ديفو (وكان اسمه الأصلى فو فغيره فى أواسط حياته إلى ديفو) فى عام ١٦٦٠ فى سانت جايلز بلندن من أسرة مزارعين كانت قد انتقلت إلى لندن من مقاطعة نورثهامبتون . أما أبوه جيمس فو فكان جزاراً فى منطقة سانت جايلز وكان ينتمى إلى جماعة البروتستانت الذين لا يتبعون الكنيسة الرسمية لانجلترا ويدعون Nonconformists أو Dissenters أى المخالفون أو المعارضون . وهم قوم يميلون إلى التطرف فى الاهتمام بأمور الدين ويوصفون بالتطهريين .

أما ديفو نفسه فكان شخصية مثيرة غامضة . عمل بالتجارة والصحافة والجاسوسية والأدب وأخيراً استحق أن يلقب « بأبى الرواية » . ويختلف كتاب السيرة ومؤرخو الأدب فيما يختص ببعض تفاصيل حياته ، لما اكتنفها أحياناً من الغموض والتناقض نتيجة لمزاولته بعض أنواع النشاط التى تدعو إلى السرية والحيطة . والمعروف أن والده أراده أن يصبح قساً فألحقه بكلية نيونجتون جرين الدينية ليحصل على التعليم اللازم لذلك ولكنه لم يتم دراسته وترك هذا المعهد بعد خمس سنوات دون أن يحصل على أية مؤهلات دراسية ، ولكنه حصل على كثير من المعلومات التى اعتمد عليها كثيراً فيما بعد . كما أجاد كتابة اللغة الإنجليزية التى أصبحت من أهم الأسس التى قام عليها نجاح كتاباته الصحفية والأدبية على حد سواء . ومما هو جدير بالذكر أن ديفو لم يتلق التعليم التقليدى الكلاسيكى ولكنه تلقى تعليماً حديثاً بمعنى أنه درس اللغات الأوربية الحديثة بدلا من اللغات القديمة كما درس التاريخ والجغرافيا وعلم السياسة ، بدلا من الميتافيزيقا والعلوم الشكلية .

ولم يصبح ديفو قساً ، بل اتجه نحو التجارة فعمل لدى صانع جوارب أولا ثم استقل بتجارة خاصة به فى عام ١٦٨٥ وراجت أعماله وقام برحلات تجارية متعددة إلى بعض أجزاء القارة الأوربية مثل أسبانيا وألمانيا وهولندا .

عاش ديفو فى فترة مضطربة من تاريخ بلاده ، فترة سادها الصراع بين أنصار المذهب البروتستانتى ويشكلون الغالبية العظمى من أبناء البلاد وبين الملوك الكاثوليك الذين حكموا انجلترا بعد عودة الملكية إثر انتهاء حكم كرومويل . لذا استهوته السياسة ، ولكونه من أتباع المذهب البروتستانتى فقد اشترك فى ثورة مونموث (١٦٨٥) التى قادها دون مونموث ضد الملك جيمس الثانى الكاثوليكى ، وكان من حسن حظه أن تمكن من الهرب عند فشل هذه الحركة . ولكنه عاد فاشترك فى ثورة ١٦٨٨ أو الثورة المجيدة التى أطاحت بجيمس الثانى وأتت بوليم الثالث البروتستانتى إلى العرش .

وقد كان ديفو يكتب النشرات سراً للدفاع عن المذهب البروتستانتى ، أما بعد أن فاز أنصار هذا المذهب فلم يتوان فى إعلان الولاء للملك الجديد عن طريق إعلانه عن كتاباته بكل شجاعة وإقدام . وسرعان ما جذب الأنظار وعرف فى أوساط البلاط ، وأصابت نشراته ــ وخاصة ما كان منها للدعاية للملك الجديد ــ نجاحاً كبيراً . إلا أنه يبدو أن هذا النشاط كان على حساب تجارته ، إذ أفلس فى عام ١٦٩٢ وعليه من الديون حوالى ١٧,٠٠٠ جنيهاً ، واضطر إلى الانتقال إلى بريستول حيث عاش فى شبه عزلة تامة حتى أطلق عليه « سيد يوم الأحد » لأنه كان يختفى بقية أيام الأسبوع خوفاً من الدائنين . ولكنه مالبث أن استرد مكانته عن طريق كتابة النشرات . وفى عام ١٦٩٤ بدأت أنجح فترات حياته ، إذ عين محاسباً للجنة ضريبة الزجاج ثم أصبح مديراً لمصنع الآجر والبلاط ، وتحسنت أحواله المالية ، فسدد ما عليه من ديون واشترى عربة وقارباً للنزهة . ولكن تجارته أفلست مرة أخرى بحيث بدا من الواضح أنه أكثر نجاحاً ككاتب منه كرجل أعمال . فبالرغم مما حققته كتاباته من أرباح إلا أن أحواله المالية استمرت فى الارتفاع والهبوط إلى آخر حياته . ومما يقال إنه قضى أواخر أيامه فى السجن لعدم تمكنه من سداد بعض الديون .

ومن أهم النشرات التى كتبها فى هذه الفترة «مقال عن المشروع» (١٦٩٧) وفيه تقدم بمقترحات كثيرة سابقة لعصره مثل التأمين الإجتماعى وتعليم المرأة ، ثم «الإنجليزى الأصيل» (١٧٠١) وفيه دافع عن الملك ضد أولئك الذين هاجموه لكونه أجنبياً عن البلاد . أما «أقصر طريق مع المعارضين » (للكنيسة الرسمية) (١٧٠٢) فكتبه للدفاع عن هذه الفئة الدينية ولكنه كتبه بلغة عنيفة ومشابهة للغة رجال الكنيسة الرسمية الذين ظنوه خطأ دفاعاً عنهم ولكنهم ما لبثوا أن اكتشفوا ما ينطوى عليه من سخرية بالغة فأمروا بحرقه ، وحكم على ديفو بغرامة مالية وبالسجن والوقوف فى آلة التعذيب : pillory ثلاث مرات . ومما يقال أن الشعب وقف إلى جانبه فى هذه المحنة وبدلا من أن يقذفوه بالطماطم والبيض الفاسد كما كان متبعاً مع من يقف هذا الموقف ، إلا أنهم قدموا له الزهور وجعلوا منه بطلا شعبياً محبوباً . وعلاوة على ذلك فقد كانت فترة وجوده فى السجن فرصة للتعرف على كثير من المجرمين من لصوص ومزورين وقطاع للطريق الذين أمدته قصص حياتهم بالمادة الخام لبعض أعماله الروائية فيما بعد .

وفى أول نوفمبر ١٧٠٣ أطلق سراحه نتيجة لاتفاق سرى بينه وبين هارلى رئيس الوزراء فى ذلك الوقت . وعمل ديفو مخبراً سرياً ومستشاراً للحكومة ، مقدماً خدماته ، كما يحلو لأعدائه أن يؤكدوا ، لحزبى الأحرار والمحافظين على حد سواء .

ولعل أهم ما يعنينا من نشاط ديفو فى هذه الفترة هو إصداره لجريدة « ريفيو » وهى دورية سياسية أدبية كانت تصدر مرتين فى الأسبوع وكان ديفو يكتب معظم مادتها بنفسه ، وتعد أول جريدة هامة ناجحة فى ذلك الوقت . ويتفق النقاد جميعاً على أن ديفو قد لعب دوراً هاماً فى إرساء قواعد الصحافة الإنجليزية الحديثة

وأنه اكتشف معظم أدواتها فأصبح بذلك « أباً للصحافة » كما أصبح « أباً للرواية » . فقد جعل من اللغة الإنجليزية أداة سهلة طيعة لنقل الخبر ونشر الآراء وإقناع القارئ والتأثير عليه وذلك عن طريق استخدام أسلوب بسيط ، والتخلص من المحسنات اللفظية التى كانت تثقل أسلوب الكتابة . وهو بذلك لم يخدم الصحافة فحسب ولكنه أعد الطريق لمولد الرواية التى أصبح الأسلوب السهل المعبر الذى يعتمد على الدقة والصدق ركناً من أهم أركانها . هذا بالرغم مما يتهمه به معاصروه من رواد المدرسة الكلاسيكية التقليدية من سوقية وجهل بأصول الكتابة وإهمال للجمال . كذلك فقد عمل من ناحية أخرى على توسيع قاعدة القراء من أبناء الطبقة المتوسطة الذين لم يتلقوا تعليماً كلاسيكياً بتقديمه نوعاً من الكتابة يمكنهم فهمه والاستمتاع به .

وهكذا نرى أن هذه الأعمال الصحفية والسياسية قد ساعدت فى إعداد ديفو لعمله الأهم والأبقى وهو كتابة الأعمال الروائية التى خلدت اسمه . فقد علمته إلى جانب ذلك كيف يقنع قراءه بصحة حقائقه وأخباره كما أكسبته تلك القدرة على اختراع التفاصيل المكانية والزمانيـــة (circumstancial) الدقيقة واســـتخدام ما وصف « بالكذب الذى يشبه الصدق » كما سنرى بوضوح فى « روبنسون كروزو » .

أعماله الروائية

أما هذه الأعمال الروائية فكتبها فى الفترة الواقعة بين ١٧١٥ و ١٧٣١ بعد أن انتقل مع زوجته وأولاده إلى ستوك نيونجتون حيث قضى بقية أيام حياته .

وكانت « روبنسون كروزو » أول هذه الأعمال وأغراه نجاحها السريع فقد ، صدر منها أربع طبعات فى مدى أربعة أشهر ، على كتابة جزء ثان مكمل لها أسماه « مغامرات أخرى لروبنسون كروزو » لم يصب ، على عادة مثل هذه الأجزاء المكملة كثيراً من النجاح ، ولكنه أتبعه فيما بعد بجزء ثالث أسماه « تأملات جدية فى حياة روبنسون كروزو » لم يكن حظه فى ذلك خيراً من حظ سابقه . وتوالت بعد ذلك أعماله الروائية الأخرى التى حجب نجاح « روبنسون كروزو » كثيراً من قيمتها وأهميتها ، إذ يستحق بعضها على الأقل من العناية والتقدير أكثر مما يناله فعلا من ذلك . وأهم هذه الأعمال هى :

«حياة كابتن سنجلتون» ، و«تاريخ حياة ومغامرات السيد دنكان كامبل » (١٧٢٠) ، « مول فلاندرز » ، و«تاريخ سنة الطاعون » (١٧٢٢) ، « حياة الكولونيل جاك » (١٧٢٣) ، « مذكرات فارس » و« روكسانا » (١٧٢٤) و« رحلة جديدة حول العالم » (١٧٢٥) ، « حياة كابتن جورج كارلتون » (١٧٢٨) .

وتعتبر الآن «مول فلاندرز» و«تاريخ سنة الطاعون» و«روكسانا» أهمها . ويذهب كثير من النقاد إلى أن «مول فلاندرز» إحدى روائع الأدب الإنجليزى الروائية على الإطلاق . وهى قصة امرأة ساقطة ، دفعتها ظروفها وفقرها إلى ارتكاب كثير من الآثام التى طالما تابت عنها ثم ما لبثت أن عادت إليها ثانية مدفوعة بدافع الفقر تارة وبدافع من طبيعتها العاطفية الدافئة العابثة المحبة للهو مرة أخرى . فقد ولدت فى سجن ثم خدعت فى مطلع شبابها وتنقلت بعد ذلك بين المحبين والأزواج وكذبت وسرقت وسجنت مرات وأخيراً تابت توبة نهائية ولزمت حياة الخلق والاستقامة قبل أن يدركها الموت . وقد يخيل لنا لأول وهلة أن قصتها لا تعدو قصة « مغامرة أنثى » على غرار قصص الأشرار البيكارية التى أشرنا إليها من قبل . ولكن الواقع غير ذلك ، فقد تمكن ديفو هنا من خلق شخصية إنسانية حية كاملة الاستدارة ، تشد انتباه القارئ وتبعث فى نفسه السرور بالرغم من الظروف غير البطولية التى توجد بها والتى تخلو من الغرابة التى يعتمد عليها كتاب قصص المغامرات . فهو

يعتمد بدلا من ذلك على صدق تصويره لحياة تلك المرأة وكشفه عن طبيعتها وجوانب شخصيتها التى تجعل منها إنسانية حية طبيعية تثير الاهتمام لا بمغامراتها ، بل لمجرد كونها امرأة . ولعل صدق الصورة التى يقدمها ديفو يرجع إلى حد كبير إلى صدق مول فلاندرز نفسها وعدم خجلها من التعبير عن مشاعرها ورغباتها والاعتراف بسعيها لتحقيق الحياة الرغدة بأية وسيلة كانت ، وإلى إصرار ديفو على نقل كل ما من شأنه استكمال هذه الصورة دون حذف أو تهذيب . ومما يرفع من قيمة هذه الصورة من الناحية الفنية أن رغبة ديفو التى يعلنها صراحة فى الدعوة إلى المبادئ الخلقية القويمة لا تفسد عليه عمله . فهو يبدى تسامحاً وفهماً لتلك المرأة الخاطئة واستعداداً لقبولها كما هى ، مما يؤكد ما ينكره عليه بعض نقاده ، من معرفة بالطبيعة الإنسانية وقدرة على الخلق والإبداع ترفعانه بعيداً عن مستوى الصحفى الذى يكتفى بالنقل الحرفى للحقائق دون معرفة حقيقية بالنفس الإنسانية .

وما يقال عن «مول فلاندرز» يمكن قوله بدرجات متفاوتة عن « روكسانا » وعن «الكولونيل جاك » و« كابتن سنجلتون » وغيرهما من الشخصيات العديدة التى تنبض بالحياة بين صفحاته . أما روكسانا فتبدأ حياتها أحسن حظاً من مول ، فتتزوج فى سن الخامسة عشر ولكن زوجها سرعان ما يفلس تاركاً لها خمسة أطفال فتنحدر إلى مهاوى الرذيلة . أما كابتن سنجلتون والكولونيل جاك فيُسرق الأول ويُباع للغجر فى طفولته وينشأ الثانى على يدى نشال . وفى جميع هذه الأعمال يقدم لنا ديفو شخصيات من واقع الحياة ، حتمت عليها ظروفها أن تناضل وتجاهد ، بل وأن تخطئ وتجرم أحياناً فى سبيل العيش والبقاء ولكنها تنتصر فى النهاية نتيجة لجدها وكفاحها ، وحسن حظها .

ومن العوامل التى ساعدت على نجاح هذه الأعمال من ناحية وقيام فن الرواية من ناحية أخرى إشباع ديفو لرغبة القراء الذين ينتمون فى الغالبية العظمى إلى الطبقة المتوسطة فى القراءة عن أنفسهم أو من يشبههم من الناس واهتمامه بالناحية الخلقية وإقناع القارئ المهتم بهذه الناحية بأن للقصة هدف خلقى .

روبنسون كروزو

والعنوان الكامل لهذا الكتاب هو « حياة ومغامرات روبنسون كروزو الغريبة المدهشة » . ويعتقد البعض أن ديفو قد اقتبس موضوع قصته عن قصة واقعية ، وقعت أحداثها لبحار اسكتلندى يدعى ألكسندر سيكلبرك ذهب فى عام ١٧٠٥ بصحبة الربان المعروف وليم دامبير فى رحلة إلى البحار الجنوبية ، ولكنه اختلف مع هذا الربان فتركه هذا فى جزيرة خالية من السكان هى جزيرة جوان فرناندز بالقرب من الشاطئ الغربى لأمريكا الجنوبية حيث بقى بمفرده حتى عام ١٧٠٩ عندما حملته إلى إنجلترا إحدى قطع الأسطول الملكى . وسواء اعتمد ديفو على هذه القصة أو على غيرها من قصص الرحالة التى كثرت فى تلك الأيام فإن ذلك لا يقلل من قيمة عمله شيئاً فقد خلق عملا جديداً مبتكراً يختلف عن تلك القصة تمام الاختلاف ، عملا خلد على مر الزمن بينما اندثرت معظم تلك الأعمال التى يقال إن ديفو قد اعتمد عليها . ولعل من حسن حظه أن اختار لنفسه موضوعاً يثير الخيال فى جميع الأجيال والأزمان ، ولكن مما لا شك فيه أن نجاح «روبنسون كروزو» يرجع إلى عوامل أخرى كذلك .

وتحكى «روبنسون كروزو» قصة حياة رجل خاض كثيراً من المغامرات ، كان أهمها إقامته بمفرده فى جزيرة نائية مدة ثمانية وعشرين عاماً وشهرين وتسعة عشر يوماً . ومما يميز هذه القصة : أولا : أن المغامرة الكبرى وهى إقامة هذا الرجل بمفرده فى تلك الجزيرة لا تقدم على أنها موضوع القصة ، بل على أنها إحدى المغامرات الكثيرة التى خاضها . ثانياً : أنه طيلة تلك

القصة ، وبالرغم مما احتوته من غرائب وأحداث مثيرة فإن التركيز يبدو واقعاً على شخصية البطل نفسه وعلى سلوكه وأفكاره ومشاعره تحت تلك الظروف القاسية التي يجد نفسه فيها . أما هذا البطل فهو شخص واقعي من أواسط الناس لا يميزه سوى جده وجلده واعتماده على النفس وهى صفات يشاركه فيها كثير من أبناء طبقته . فإذا ما تذكرنا أن ديفو قد زعم فى مقدمة كتابه أنه يقدم وقائع حقيقية لا دخل للخيال فيها أدركنا لماذا تعين عليه أن يقنعنا بواقعية قصته قبل أن يلقى بنا فى سلسلة الأحداث و « المغامرات الغريبة المدهشة » التى يشير إليها عنوان القصة . لذا يبدأ الكاتب بتثبيت شخصية روبنسون كروزو فى عالم الواقع عن طريق حشد عدد كبير من التفاصيل الدقيقة التى توحى بجو من الواقعية والصدق ، وكأنى به فى سبيل إقناع القارئ بكذبته الكبرى يسوق أولا عدداً من الكذبات الصغيرة الصغيرة أن يتقبلها القارئ دون جهد أو شك لأنها تبدو كالصدق .

وتوكيداً لذلك الجو من الصدق والواقعية يستخدم الكاتب طريقة ضمير المتكلم لسرد القصة أى أنه يضعها فى شكل الترجمة الذاتية التى تقوم فيها الشخصية الرئيسية بدور الراوى فتكتسب بذلك قدرة أكبر على اكتساب ثقة القارئ وإقناعه بصدقها . فلنر إذن كيف يقدم كروزو نفسه للقارئ :

« لقد ولدت فى مدينة يورك فى عام ١٦٣٢ من أسرة طيبة ، وإن لم تكن من أهل هذا البلد ، فإن والدى أصلا من أهل بريمن ولكنه انتقل إلى «هل» أولا حيث كون لنفسه ثروة عن طريق التجارة ثم ترك تجارته وعاش بعد ذلك فى يورك - وهناك تزوج من أمى التى كان يدعى أهلها روبنسون وهم أسرة طيبة جداً فى هذا البلد ، وعنهم أخذت اسمى روبنسون كروتزنر . ولكن نتيجة لما يحدث من تحريف للكلمات فى انجلترا فنحن نسمى الآن ، أو على الأصح نسمى أنفسنا ونكتب اسمنا « كروزو » وهكذا يسميني رفاقى دائماً .

« وكان لى أخوان أكبر منى سناً . كان أحدهما مقدماً فى فرقة إنجليزية فى هولندا تحت قيادة العقيد المعروف لوكهارت ، وقتل فى المعركة التى وقعت قرب دنكرك ضد الأسبان . أما أخى الثانى فلم أعرف مطلقاً ما حدث له تماماً كما لم يعرف والدى ما حدث لى أنا ! » .[1]

وهكذا ينسب الكاتب بطله لأسرة وأبوين وإخوة مورداً أثناء ذلك بعض التفاصيل الواقعية ، قبل أن ينتقل ليعرفنا بالبطل نفسه :

« ولكونى الإبن الثالث لأسرتى ولأنى لم أتعلم أية حرفة فقد بدأ رأسى يمتلىء منذ وقت مبكر بأفكار السفر والتجول . وكان والدى - الذي كان مسناً جداً - قد كفل لى قدراً كافياً من التعليم أى بالقدر الذى يمنحه التعليم فى المنزل أو فى مدرسة ريفية مجانية عادة ، وقرر أن أعمل بالقانون . ولكنى لم أكن لأرضى بغير حياة البحر بديلا ، ولذا فقد دفعنى ميلى لهذه الحياة لأعرض عن توسلات أمى وأهلى ومحاولاتهم لإقناعى بالرجوع عن ذلك ، لدرجة كان يبدو معها أن هناك أمراً مقدراً فى هذا الميل الطبيعى الذى يدفعنى مباشرة لحياة الشقاء التى كانت تنتظرنى » .

ثم ينتقل الكاتب تدريجياً إلى الظروف التى أحاطت بأول رحلة لهذا الفتى والتى ارتبطت فى ذهنه بعصيانه لوالديه وخشيته من غضب السماء وما قد تنزله به من عقاب . فهو يخبرنا أولا كيف حاول والده أن يثنيه عن عزمه مبيناً له أن لا حاجة به للسفر والمغامرة فى سبيل المال ، إذ يمكنه أن يحيا حياة رغدة دون أن يترك بيته وأهله ، وموضحاً له مزايا الحياة الوسطى وأنها خير من الفقر الشديد كما أنها خير من الثروة الطائلة . وجدير

---

(١) «روبنسون كروزو» (طبعة كولينز ١٩٦١) ص ١٧

بالملاحظة ، أن روبنسون كروزو يقرر منذ البداية أن الدافع للسفر والتجول لم يكن مجرد الميل إلى التنقل ورؤية العالم ، بل هو السعى وراء الثروة والربح وتحسين المركز .

وينصت كروزو إلى نصيحة والده أول الأمر ولكن ما يلبث أن يعاوده الحنين إلى البحر فيذهب إلى والدته راجياً إياها التوسط له لدى والده ولكنها ترفض ذلك مؤكدة له أن والده لن يسمح له بالسفر ولن يبارك خطته مهما يكن من أمر . ثم هى تبدى عجبها لمعاودة ابنها الكرة بعد ما كان بينه وبين والده من حديث أبوى رقيق . ويفقد كروزو الأمل فى موافقة والديه فيترك التفكير فى الأمر فترة من الوقت ، ولكن تغلبه الرغبة الجامحة إلى المغامرة فى النهاية فيذهب لا يلوى على شىء هذا بالرغم من إدراكه لخطئه وتخوفه من نتيجته . وها هوذا يصف بدء حياته الحافلة بالمغامرات :

« ولم أفلت إلا بعد سنة تقريباً من ذلك الوقت . ولو أنى طيلة هذا الوقت لم أكف عن رفض أية مقترحات بشأن اشتغالى بأى عمل . وكثيراً ما كنت ألوم والدى ووالدتى لإصرارهما الشديد على رفض ما كانا يعلمان أن ميولى تمليه على . ولكنى عندما كنت يوماً فى «هل» ، حيث ذهبت عرضاً ودون نية للهرب فى تلك المرة ، فقد حدث أن كان أحد أصدقائى على وشك الإبحار إلى لندن فى سفينة والده وعرض على الذهاب معه مستخدماً لإغرائى تلك الكلمات المعروفة للبحارة وهى أن الرحلة لن تكلفنى شيئاً . فلم أستشر أباً أو أماً مرة أخرى ، ولم أبعث لهما بكلمة عن الأمر ، بل تركتهما ليسمعا به كيفما اتفق ، ودون أن أطلب بركة الله أو بركة والدى ودون أى اعتبار للظروف أو النتائج . وفى ساعة « نحس » يعلم الله ، ركبت فى أول سبتمبر ١٦٥١ سفينة مصوبة نحو لندن . وإنى أعتقد أنه ما من مغامر حدث قد بدأت مصائبه بسرعة أكثر مما بدأت مصائبى أو استمرت مدة أطول مما استمرت مصائبى . إذ ما كادت السفينة تخرج من الهمبر حتى أخذت الرياح تهب والأمواج ترتفع بطريقة مخيفة للغاية . ولما كنت أبحر لأول مرة فقد أصابنى الدوار والفزع بشكل لا يعبر عنه . وبدأت الآن جدياً فى التفكير فيما فعلت وكيف نزل بى قصاص السماء العادل نتيجة لخطئى الفادح فى تركى لبيت والدى والهرب من واجبى . وتذكرت الآن نصيحة والدى القيمة ، ودموع والدى وتوسلات والدتى ، ولامنى ضميرى الذى لم يكن بعد قد بلغ تلك الدرجة من التحجر التى بلغها فيما بعد . لامنى لاحتقارى النصيحة وإهمالى لواجبى نحو الله ونحو والدى » .(١)

وكأنما تعبر هذه الفقرة مقدماً عما سيلحق بكروزو نتيجة لفعلته هذه بحيث نشعر عندما نجده فى « جزيرة الأسى » بمفرده فيما بعد أن ذلك كان متوقعاً . ونلاحظ هنا بوجه خاص انزعاج كروزو وتفكيره فى خطئه وشعوره بالإثم . ويلاحقه هذا الشعور بالإثم طيلة مغامراته ويقوده تدريجياً عندما يدرك مدى عناية الله به إلى علاقة أقرب وأوثق بالله . ويمثل هذا الشعور أحد الجانبين الهامين فى شخصيته ، فهو إنسان واقعى يسعى إلى الثروة من ناحية وإنسان دين من ناحية أخرى . أما فى بادئ الأمر فإن تدينه لا يعدو أن يكون عادة أو أمراً آلياً ، أما بعد أن يمر بتجربته القاسية فإنه يدرك أن يد الله وراء كثير مما يحل به من أحداث فيركع ساجداً لله شاكراً له عنايته به ، وتتغير نظرته إلى الدين فيشعر بوجود الله شعوراً قوياً مختلفاً ، ويصبح الدين علاقة حية بينه وبين خالقه . ولعلنا نرى هنا أثر تربية ديفو نفسه الدينية .

فإذا عدنا إلى أحداث الرواية وجدنا أن تلك العاصفة التى تغرق أول سفينة يركبها كروزو ليست سوى الأولى فى حياته ، تتبعها ثانية وثالثة نتيجة لتصميم

(١) « روبنسون كروزو » ، ص ٢٠ .

هذا الشاب الغر على متابعة مغامراته دون أي اعتبار جدى لتلك التحذيرات التي كانت تبدو له جلية واضحة كلما شعر بخطر البحر ثم تتضاءل أهميتها وتخف حدة تأثره بها بعد زوال الخطر ومرور قليل من الوقت . ففى كل مرة يتعرض فيها للخطر كان ينذر أن يعود إلى إلى أهله طالباً الصفح والغفران إذا كتبت له النجاة ، ولكنه سرعان ما كان ينسى ذلك ويعاود الكرة المرة بعد الأخرى .

ولعل من سوء طالعه أن رحلته الثانية التى قام بها تجاه ساحل أفريقيا كانت ناجحة مربحة ، فأغرته بالقيام برحلة أخرى إلى جزر كنارى كانت نتيجتها أن وقع فى أيدى جماعة من القرصان وبيع كعبد . ولكنه تمكن أخيراً من الهرب باستيلائه على قارب سيده الذي كان يرسله فيه أحياناً للصيد ، ساعده فى ذلك خادم صغير يسمى اجزورى . ويقضى كروزو فترة من الزمن فى هذا القارب ملازماً ساحل أفريقيا إلى أن تلتقطه سفينة برتغالية هو وخادمه الصغير وكل ما يحمل من متاع إلى البرازيل . وهنا يعرض كروزو على ربان السفينة كل ما يملك لقاء إنقاذ حياته ولكن هذا يرفض ذلك محتجاً بأنه لم ينقذ حياته من الهلاك فى البحر ليتركه يهلك جوعاً على البر فى بلاد غريبة ، ولكنه يطلب منه أن يبيعه قاربه وخادمه وبعض الأشياء الأخرى التى يرغب فى الاستغناء عنها فيفعل ذلك شاكراً . وهنا نلاحظ أن كروزو لم يتردد كثيراً فى بيع خادمه الصغير الأمين ولا يلوم نفسه حقاً إلا عندما يشعر بالحاجة إلى خادم آخر حين تستقر به الأمور فى البرازيل ويشترى مزرعة وتأخذ زراعته فى الاتساع . فهنا فقط يتذكر اجزورى وكيف باعه ويحزن لذلك ، ولكنه سرعان ما يبرر عمله قائلا : إنه لم يكن بوسعه أن يرفض للربان طلباً .

وهنا نرى إحدى صفات كروزو المميزة فهو لا يفتأ يحلل أعماله ويناقشها ويحاول تبريرها أمام نفسه . وما ذلك فى الواقع إلا وسيلة من وسائل بناء الشخصية التى يستخدمها ديفو . فهو لا يكتفى بتقديم صورة مفصلة لما يقع لكروزو من أحداث وما يقوم به من أعمال ولكنه يكشف لنا عما يدور بخاطره من أفكار وأحاسيس وإن لم يبلغ ديفو فى ذلك درجة كبيرة بالمقارنة بمن تبعه من الروائيين ، إلا أنه قد خطا الخطوة الأولى فى هذا المضمار ، فعمل على توضيح ملامح شخصيته وتعميق أبعادها بحيث يمكننا القول بأن موضوع العمل القصصى لم يعد المغامرات فحسب ، بل أصبح الشخصية أو الشخصيات وهو ما يتفق النقاد على أنه الركن الرئيسى للرواية التى تهدف كفن لتصوير الحياة الإنسانية . فما الأحداث سوى العوامل والملابسات التى تبرز الشخصية وتكشف عن معالمها . فإذا أردنا مثلا لذلك فلنستمع لكروزو مرة أخرى بعد أن اتسعت مزارعه بالبرازيل وأخذ يلوم نفسه لتفريطه فى الصبى اجزورى لنعلم إلى أى مدى هو دائم اللوم لنفسه ؛ دائم التطلع لشيء آخر :

« ولكن وأسفاه ! فما من غرابة فى أن أخطىء أنا الذى لا أصيب أبداً . ولكن ما من علاج للموقف سوى أن أستمر ، فها أنذا قد اتخذت لى عملا بعيداً كل البعد عن ميولى ومضاداً تماماً للحياة التى تدخل البهجة إلى نفسى والتى من أجلها تركت بيت أبى ورميت بنصيحته عرض الحائط . نعم ، فها أنذا مقبل على ذلك المركز المتوسط أو الدرجة العليا من الحياة الدنيا التى نصحنى بها والدى من قبل ، والتى إذا ما قررت قبولها لكنت الآن فى بيتى وما كنت تكبدت فى الدنيا من المتاعب ما تكبدت . وكثيراً ما كنت أقول لنفسى لقد كان بوسعى أن أفعل تماماً فى انجلترا وبين أهلى ما ذهبت ٥,٠٠٠ ميلا بعيداً لأفعله بين الأجانب والمتوحشين فى هذا القفر وعلى مثل هذه المسافة التى لا يمكن عندها سماع أية أخبار من أى جزء من العالم يعرف عنى شيئاً » .(١)

---

(١) « روبنسون كروزو » ؛ ص ٤١ .

« وهكذا كنت أنظر إلى حالتى بأشد الأسف . فلم يكن هناك من أتحدث معه سوى هذا الجار من وقت لآخر . ولم يكن هناك من عمل أقوم به غير العمل اليدوى وكنت أقول لنفسى إنى أعيش تماماً كإنسان ملقى به بعيداً فى جزيرة قفراء بمفرده . ولكن كم هو من العدل وكم يجب أن يفكر الناس أنهم عندما يقارنون ظروفهم الراهنة بظروف أخرى أسوأ ، فإن السماء قد تجبرهم على تغيير تلك الظروف حتى يتأكدوا عن طريق تجربتهم الشخصية من سعادة ظروفهم السابقة . وإنى أكرر أنه لمن العدل أن الحياة الانفرادية الحقة التى تصورتها فى جزيرة قفراء قد آل إليها مصيرى أنا الذى قارنتها ظلماً بالحياة التى كنت أحياها حينذاك والتى إذا ما استمررت بها لأصبحت على أغلب الظن ناجحاً جداً وغنياً جداً » (1) .

وينضح ذلك الميل إلى السفر والتجول مرة أخرى عندما يترك ديفو مزارعه الناجحة ويواصل مغامراته . ذلك أنه نظراً لحاجته وبعض جيرانه من المزارعين للخدم ونظراً لما كان كروزو قد ذكره لهم عن وجود كثير من السود الذين يمكن استحضارهم من أفريقيا واستخدامهم فى مثل هذه الأعمال فإن بعض هؤلاء المزارعين يعرضون عليه أن يعدوا له سفينة ليذهب لإحضار بعض هؤلاء العبيد على أن يقوموا هم بدفع نفقات الرحلة والإشراف على مزارعه أثناء غيابه . وبعد تردد قليل يوافق كروزو على مقترحاتهم ، فيقضى بذلك على كل ما كان ينتظره من استقرار وثروة . ولكنه يدرك تماماً أنه كان بإرادته سبب كل ما أصابه من شقاء « فكل هذه المصائب والإخفاقات كانت نتيجة لتمسكى الواضح العنيد بميلى الأحمق للتنقل فى الخارج ولمتابعة ذلك الميل معارضاً بذلك أوضح الأمور لمصلحتى ولتحقيق بوادر الحياة الناجحة التى اتفقت الطبيعة والسماء على منحها لى وجعلها من واجبى » (1) .

وهكذا يصل بنا ديفو إلى أهم حدث فى القصة وهو تحطم سفينة كروزو فى عاصفة عاتية ونجاته بمفرده ليقضى الجزء الأكبر من ٢٨ عاماً فى جزيرة خالية من السكان بعيداً عن طرق الملاحة المعروفة . ومرة أخرى يؤكد لنا كروزو مسئوليته عما حدث له ويشير إلى أن رحلته هذه قد بدأت فى اليوم الأول من سبتمبر ١٦٥٩ وهو نفس اليوم الذى ترك فيه أبويه ليذهب إلى «هل» قبل ذلك التاريخ بثمانى سنوات .

ومما يلاحظ اهتمام ديفو بالتواريخ فى هذه القصة . فكروزو يذكر تاريخ كل حادث هام فى حياته ويربطه بغيره ليستنتج من ذلك أن هناك أكثر من عامل الصدفة وراءها ، هذا من ناحية . أما من الناحية الأخرى فإن هذه الدقة فى تحديد الأزمنة هى أحد أوجه الأسلوب الذى يستخدمه ديفو ويعتمد فيه على التفاصيل الدقيقة المحسوسة التى تساعد فى مجموعها على خلق جو من الواقعية والصدق حول ما يبدو فى القصة من مستحيلات ومن أمثلة ذلك أن كروزو عندما يكتشف أنه نجا من الموت بأعجوبة وأنه الوحيد الذى نجا فإنه يخبرنا ببساطة لا تترك فرصة للشك وإن كانت تدعو للعجب والأسى : « أما عن الباقين فلم أرهم قط بعد ذلك ولا أى أثر لهم ، فيما عدا ثلاث قبعات . وغطاء للرأس وفردتى حذاء مختلفتين » (2) أو عندما يدرك أن هذه النجاة إنما هى نجاة مخيفة ، فملابسه مبللة وليس لديه غيرها ليبدلها وليس لديه ما يأكله أو يشربه وليس لديه سلاح يصطاد به شيئاً يقتات به أو يدافع به عن نفسه ضد أى مخلوق قد يرغب فى أن يتغذى به : « فبالاختصار ، لم يكن معى سوى سكين وغليون وقليل من التبغ فى علبة » . هذا بينما الوقت مساء والليل على الأبواب . كل هذه

(1) ص ٤٢ الجار المشار إليه مزاوع من أصل انجليزى كان يقيم بالقرب منه .

(1) ص ٤٣ - ٤٤ .
(2) ص ٥٠ .

التفاصيل الملموسة تساعد على تصوير الأحداث وتعاون القارئ على « أن يمارس عن رضى إيقاف ميله لعدم التصديق » كما يقول كولبردج .

وينجح ديفو فى إثارة اهتمام القارئ لهذا الموقف عن طريق الوصف الدقيق المفصل لكل ما يقوم به كروزو من أعمال وما يدور بخاطره من أفكار وإحساسات مبدياً عبقرية نادرة فى التفكير فى كل ما يمكن أن يعن للمرء من تفاصيل هامة تخدم هدفه .

أما كروزو فسرعان ما يواجه الموقف ، بعد نوم ليلة هادئة فى أعلى شجرة كبيرة ، بواقعية وشجاعة ، فما يكاد يلمح السفينة التى ظنها قد غرقت مرتطمة بالصخور على مقربة من المكان الذى ألقت إليه به الأمواج حتى يسرع إليها وينقل منها كل ما يمكن وكل ما يحسب أنه سيحتاج إليه فى إقامته التى يتصور مقدماً أنها ستكون إقامة طويلة قاسية ، مبتدئاً بالأهم فالأقل أهمية ، ويعرفنا بدقته المميزة أنه ذهب إلى السفينة إحدى عشرة مرة أثناء الثلاثة عشر يوماً التى بقيتها السفينة على الصخور قبل أن يبتلعها اليم . ثم ينتقل لوصف اختياره للمكان المناسب لإقامة مسكن له ذاكراً كل الاعتبارات التى كان عليه مراعاتها وكيف عمل على المحافظة على سلامة « بضائعه » من التلف ، ثم كيف نظم أوقاته بحيث جعل للعمل وقتاً وللراحة وقتاً وللصيد وقتاً وللعمل بمكان إقامته وقتاً آخر ، ثم كيف بدأ بصناعة أدوات بسيطة وتدرج منها إلى صناعة أدوات أخرى أكثر تعقيداً ثم كيف استأنس بعض الماعز وأعد الأرض لزراعة بعض الحبوب وكيف حصن مسكنه وأقام حوله سياجاً من الأشجار ثم كيف نقل بعض ممتلكاته إلى كهف بعيد خوفاً عليها من الأمطار وخشية أن يدهم مسكنه خطر مفاجئ فيفقد كل شيء .

ويفلح ديفو فى إقناع القارئ بحقيقة هامة هى مرور الزمن ، وهو عامل هام لإقناعه بحقيقة قضاء كروزو لكل هذا الوقت فى تلك الجزيرة . ويفعل ذلك فى بادئ الأمر عن طريق المذكرات اليومية التى يدونها كروزو ولكن سرعان ما يستهلك كل ما وجده فى السفينة من مداد ولا يجد وسيلة لصنع غيره . ولذا فهو يعتمد أساساً على وسائل أقل آلية من ذلك ، فيوحى للقارئ بمرور الزمن عن طريق غير مباشر بالإشارة إلى تكاثر قطيع الماعز الذى استأنسه مثلا ، أو إلى تزايد عدد القطط التى توالدت من قطتين أنقذهما من السفينة حتى اضطر إلى قتل معظمها ، أو إلى تعلم ببغاء استأنسه وحاول تعليمه بضعة كلمات حتى صار قادراً على تكرار بعض الجمل بكل وضوح ، أو إلى زيادة محصول القمح والأرز الذى يبدأ ببضع سنابل نمت من بضع حبات ألقى بها عفواً عند نفض كيس كان يحوى بعض المواد الغذائية التى أحضرها من السفينة ، وتزايدت مع السنوات حتى أصبحت كافية لأن يصنع منها ما يكفيه من الخبز الذى حرم منه لعدة سنوات ، أو إلى تكاثف الشجيرات التى غرسها حول مسكنه حتى أصبحت سداً منيعاً يستحيل اختراقه دون تسلق إحدى الأشجار أو اقتلاعها . كما يشير أيضاً إلى عدد الأيام أو الأسابيع أو السنوات التى تستلزمها صناعة شيء معين ، فصناعة منضدة مثلا تستغرق أسابيع بينما يستغرق حرث مساحة من الأرض بأدواته البدائية شهوراً ، أما قطع شجرة وإعدادها وصنع قارب منها فيستلزم سنوات . ويبدو كروزو شديد الاهتمام بالزمن بالرغم من وحدته وتشابه الأيام وعدم توقعه حدوث أمر جديد . ولكنه يخبرنا من بادئ الأمر أنه قام بحساب السنوات التى قضاها فى الجزيرة وأنه كان يحتفل سنوياً بذكرى مجيئه إليها بالصلاة وتقديم الشكر لله ، كما يخبرنا فى مكان آخر من القصة أن حسابه كان دقيقاً لدرجة أنه عندما عاد إلى العالم الخارجى وجد أنه لم يخطئ سوى فى يوم واحد يرجح أنه نامه بأكمله أثناء فترة مرض ، ونتيجة لتناوله جرعة كبيرة من التبغ على سبيل الدواء . وهاك مثلا لكيفية إشارته إلى مرور الزمن :

« لقد كنت الآن فى السنة الثالثة والعشرين من إقامتى فى هذه الجزيرة ، وكنت قد تكيفت للمكان وطريقة الحياة فيه ، حتى أنه لو أمكننى التأكد من عدم مجئ متوحشين إليه لإزعاجى لكنت قد ارتضيت بقضاء بقية أيامى هناك ، حتى إلى آخر لحظة ، إلى أن أرقد وأموت مثل ذلك الماعز الكهل (الذى رأيته) فى الكهف . كما كنت قد توصلت إلى بعض وسائل الترفيه والتسلية التى جعلت الوقت يمر بشكل ألطف بكثير عن ذى قبل .. فقد علمت ببغائى «بول» الكلام كما أشرت من قبل ، وكان يتكلم الآن بسهولة ، وينطق الكلمات بوضوح ، مما كان يسرنى كثيراً ، وعاش معى «بول» ما لا يقل عن ستة وعشرين عاماً ، ولا أدرى كم من الزمن كان يمكن أن يعيش بعد ذلك ، فأنا أعلم أنهم يظنون فى البرازيل أن الببغاوات تعيش مائة عام . ولعل «بول» المسكين ما زال حياً هناك للآن، ينادى روبنسون كروزو المسكين إلى هذا اليوم . . أما كلبى فكان رفيقاً ساراً ومحباً لى لفترة لا تقل عن ستة عشر عاما ، ثم مات من الشيخوخة »[1] .

ويظهر ديفو براعة فائقة فى سرد قصته بحيث يحتفظ بانتباه القارئ وتشوقه فروبنسون كروزو يملأ بنشاطه وسعة حيلته الأيام المتتالية بالأعمال المختلفة التى تتفاوت بين صنع رداء من جلد الحيوان إلى صنع غليون من الطين إلى محاولة جريئة لاستكشاف سواحل الجزيرة.

وهكذا تمضى الحياة آمنة مستقرة بوجه عام وإن كانت لا تخلو من مفاجآت وصعوبات ومخاطر يقابلها جميعاً كروزو بشجاعة وصبر ، إلى أن يحدث يوماً ما يفزع هذا البطل ويقض مضجعه بحق . ولنتركه يصف لنا هذا الحدث فى فقرة من أشهر فقرات الكتاب :

« حدث ذات يوم حوالى الظهر وأنا متجه نحو القارب أن هالنى على الشاطئ أثر قدم رجل عارية ، يمكن رؤيتها بوضوح على الرمل . فوقفت كشخص أصابه قصف الرعد أو كما لو كنت قد رأيت شبحاً ، وأنصت وتلفت حولى ولكنى لم أسمع شيئاً ولم أر شيئاً ، وصعدت إلى ربوة مرتفعة لأرى لمسافة أبعد وسرت على الشاطئ جيئة وذهاباً ولكن ذلك لم يغير من الأمر شيئاً ، فلم أر أى أثر آخر غير ذلك الأثر . فذهبت إليه مرة أخرى لأرى هل هناك آثار أخرى ولمعرفة ما إذا كنت قد تخيلت ذلك الأثر . ولكن لم يكن هناك مجال لذلك فقد كان هناك بالضبط ودون أدنى شك أثر قدم وأصابع وكعب وكل جزء من قدم . أما كيف جاءت إلى هناك فلم أعرف ولا كان يمكننى أن أتصور ذلك على الإطلاق . ولكن بعد أن تنازعتنى أفكار شتى وكنت مثل رجل مضطرب وفى غير وعيه تماماً عدت للمنزل إلى حصنى وأنا لا أحس كما يقال بالأرض التى أمشى عليها ، بل كنت فى غاية الفزع ، أتلفت خلفى كل خطوتين أو ثلاث وأتوهم كل شجرة أو شجيرة أو جذع شجرة على بعد رجلا . غير أنه من المستحيل أن أصف كيف صور لى الخيال المنزعج أشياء كثيرة ولا كم من الأفكار الغريبة قد وجدت طريقها إلى ذهنى طيلة الطريق .

« أما عندما جئت إلى حصنى ، فهكذا أظننى قد سميته منذ ذلك الوقت فقد هربت إلى داخله كشخص مطارد — وسواء كنت قد صعدت السلم كما كنت أفعل أولا أو دخلت من الفتحة التى فى الصخر والتى كنت أسميها باباً فلا أذكر ، لا ، ولا كان بوسعى أن أتذكر فى الصباح التالى ، فما من أرنب فزع قد هرب إلى مخبئه أو ثعلب إلى جحره وهو أكثر اضطراباً مما جريت أنا إلى هذا المخبأ »[1] .

وهكذا يتابع القارئ كروزو بقلب واجف إلى أن

(١) « روبنسون كروزو » ص ١٥١ .

(١) ص ١٣١ .

يكتشف معه أن جماعة من المتوحشين يؤمون الجانب الآخر من الجزيرة من وقت لآخر لإقامة احتفال يلتهمون فيه ما يحضرون من الأسرى ثم يذهبون تاركين وراءهم آثار فعلتهم البشعة . ويضطرب كروزو ويقسم أن يعاقب أولئك المتوحشين إن هم حلوا بجزيرته مرة أخرى ولكن كثرة عددهم كانت تمسك يده إلى أن حانت الفرصة فأنقذ من بين أيديهم أحد الأسرى واتخذه خادماً له ، علمه اللغة الإنجليزية ولقنه مبادئ الدين المسيحى فصار خير أنيس له فى وحدته . وينقذ كروزو وخادمه فرايداى (نسبة ليوم الجمعة) عدداً آخر من الأسرى ويشعر كروزو وكأنه أصبح ملكاً لرعية صغيرة تعاونه وتأتمر بأمره فيفكر جدياً فى محاولة للوصول إلى شاطئ القارة الأمريكية التى يأتى منها هؤلاء المتوحشون ، إلا أن سفينة إنجليزية تعرج على جزيرته عرضاً ، ويدرك كروزو أن بعض بحارتها قد خرجوا عن طاعة ربانهم وحاولوا الاستيلاء على السفينة وترك الربان وبعض رجاله على الجزيرة ، فينقذه هو ورجاله من بين أيديهم ويسترجع له سفينته ، فيحمله هذا معه وخادمه إلى انجلترا بعد أن يكون قد قضى فى الجزيرة ثمانى وعشرين سنة وبعيداً عن وطنه خمسة وثلاثين عاماً كاملة . ويعود كروزو ليجد نفسه غريباً فى وطنه فقد توفى والداه وتفرقت أسرته ، ولكنه يجد نفسه ثرياً جداً فقد درت مزارعه فى البرازيل أرباحاً طائلة إلا أنه بالرغم مما حقق من ثراء وما قد قاسى من أهوال فإنه يعود للسفر مرة أخرى مدفوعاً كما يخبرنا فى الجزء الثانى من رحلاته ، لا بحب المال فحسب كما يتضح لنا الآن ، ولكن بتلك الرغبة الملحة فى السفر والترحال .

تلك إذن هى قصة كروزو التى ما زالت تثير الخيال وتجتذب القراء من جميع الأجناس والأعمار ، فما سر عظمتها ؟ وما سر خلودها ؟ وإلى أى مدى أثرت فيما تلاها من أعمال ؟

لقد كتب روسو يقول : إن «روبنسون كروزو» هو الكتاب الوحيد الذى يمكن أن يعلّم كل ما يمكن أن تعلمه الكتب » . وأضاف أن إميل « سيقرأ هذا الكتاب قبل أن يقرأ أى كتاب آخر وأنه سيبقى الكتاب الوحيد فى مكتبته لمدة طويلة ، كما سيشغل دواماً مكاناً فى الصدارة » .

أما إذا أردنا حكماً أكثر موضوعية فلنستطلع آراء بعض كبار نقاد الرواية . يشير والتر ألين إلى نقطة هامة عندما يقول « إن ديفو يضع التركيز طيلة الوقت لا على الجزيرة أو على الأخطار التى تحيط البطل ، بل على كروزو نفسه كرجل . . إن كروزو هو الذى يملأ الصورة وهو يفعل ذلك بصفاته البطولية حقاً ، كرجل يسود الطبيعة »[(١)]. ثم يضيف أن كروزو أول ممثل للفردية ولكنه يقنعنا بفرديته لأنه لا يختلف عن غيره من الناس ويذكرنا بقول كولبردج الشاعر الإنجليزى المعروف من « أن كروزو لم يبلغ درجة فائقة من المهارة فى كل ما فعله ، فهو يجيد النجارة والخياطة وصناعة الآنية الفخارية بالقدر الذى يسد حاجاته فقط . . فهو يبلغ الدرجة التى يشعر جميع الناس أنهم يستطيعون بلوغها » ولعل هذا هو سر اجتذابه للقراء فهو كما يقول كولبردج أيضاً « يمثل العالم بأجمعه . فهو الشخص الذى يمكن لكل قارئ أن يضع نفسه مكانه » . وبالرغم من أنه يمثل كلا منا إلا أنه صنع المعجزات وتمكن بمفرده ودون أدنى معونة أن يتحكم فى ظروفه وينتصر على الطبيعة .

أما النقطة الهامة الثانية فهى أن ديفو استطاع أن يجعل من شخصية كروزو شخصية مقنعة فنياً . وهنا أيضاً يتفق النقاد على أنها شخصية كاملة بشكل واضح هذا علماً بأن هناك مناطق بأكملها من الخبرات الإنسانية التى لا تدخل فى نطاقها . ولكن ديفو قد أحسن تصوير

---

(١) ص ٣٩ .
Walter Allen, *The English Novel* (1958) :

النواحى التى تناولها لدرجة تمكننا من تصور تلك التى لم يتناولها .

وجدير بنا أن نؤكد هنا أنه ليس من العدل أن نتهم ديفو ، كما يفعل البعض ، بجهله بأهمية الناحية الشكلية والفنية . فاختياره للشكل السردي المناسب لقصته وتسخيره للترجمة الذاتية الخيالية لأغراضه ، فى الوقت الذى لم تكن فيه حتى الترجمة الذاتية الحقيقية معروفة لأكبر دليل على عبقريته[1] . أما إبداعه فى خلق ذلك الجو من الواقعية والصدق القائم أساساً على دقة الملاحظة واختيار التفاصيل فهو ما يذكره له جميع النقاد ومؤرخى الأدب بالإعجاب والثناء .

أما أهمية «روبنسون كروزو» من الناحية التاريخية فلندلل عليها من أقوال إيان وات مؤلف نشأة الرواية . يرى وات أن نشأة الرواية مرتبطة بعاملين هامين هما ازدهار المذهب الواقعى وانتشار المذهب الفردى . وترجع أهمية « روبنسون كروزو » إلى أنها أول عمل قصصى تتمثل فيه الفردية والواقعية خير تمثيل[2] .

فكروزو شخصية واقعية تختلف عن أبطال القصص الرومانسية من ناحية وشخصية تمثل الفردية الاقتصادية من ناحية أخرى .

ويذهب وات إلى أن كروزو يمثل الفرديــة الاقتصادية أكثر من أى شيء آخر ، فحب المال هو الدافع الرئيسى لجميع أعماله لذا فإن العلاقات الاجتماعية وحتى علاقته بالله تأتى فى المرتبة الثانية . أما أرنولد كيتتل فيقول « إن روبنسون كروزو تعد من ناحية قصة فى امتداح الفضائل البرجوارية وهى الفردية والعمل الخاص . . أما من ناحية أخرى أهم فإنها تشيد بضرورة الحياة الاجتماعية وكفاح الإنسان عن طريق العمل لقهر الطبيعة » .

وسواء نظرنا إلى هذه القصة من خلال هذه النظرة أو تلك فما لا شك فيه أنها تمثل على المستوى الرمزى ناحية أهم وأعمق وهى شعور الإنسان بالوحدة الكاملة فى علاقته مع الله والوجود . ولعل تصويرها لهذا الشعور بالوحدة التى يقاسى منها الفرد فى العالم الحديث بوجه خاص هو الذى يقربها إلى نفس القارئ الحديث بالرغم مما يرى فيها من تكرار ممل وإغراق فى التأملات الدينية والفلسفية التى قد تفسد عليه استمتاعه بها .

---

(١) انظر أولا : المرجع السابق ص ٣٩ .
ثانياً : الجزء الأول ص ٥٩ من :
Arnold Kettle, *An Introduction to the English Novel* (1961).

(٢) انظر ص ٦٠ – ٦٢ من (١٩٦٠) .
Ian Watt, *The Rise of the Novel* (1960).